الرومانسية القديمة في أشعار أفتوشنكو الجديدة

بقلم ابراهيم فتحي

كانت الاحجار تصيب انصار الجديد عندما يشيرون الى ما وراء الطرق القديمة . ولكن الشاعر « افجيني افتوشنكو » نقذفه المجلات الاميركية ، بصوره الملونة على اغلفتها ، وقد استطاع وهو في الثلاثين ان ينقش اسمه بانوار النيون الصارخة . ولم يصبه من النقد داخل بلاده الا رذاذ يسير ، ولعل ذلك راجع الى طبيعة الثورة الجديدة التي ارتبطت باسمه في الشعر السوفياتي . فهو عند انصاره مبرز للعناصر الرومانسية التي خفت صوتها . ويعيد للقلب الانساني مكانته في عالم تخنقه الالة . وتسوده سيطرة الدولة . ويلتقط النجوم التي انزلقت من الاصابع اليابسة يصفها من جديد . في سماء كان الناس قد كفوا عن التطلع اليها . ويتفنن في طلاء اوراق الشجر بضوء القمر الفضي، بعد ان يغرس الشجرة من جديد في الحقل المهجور . وهو فوق ذلك يقدم الاحلام لكل امرأة عاطفية لم يعطها مشروع السنوات الخمس فارسا، ودموعا نقية للقلوب المحطمة .. بل انه يهب سامعيه ايقاعات راقصة صاخبة على الطريقة الاميركية بعد ان يفرغوا من الاحلام والدموع..

الباب موصد في وجه العاصفة
والامواج العاتية تزحف من المحيط
ترتطم بالسدود ، وترضع اشعة الشمس الخابية
في صخب له طعم الملح .. نامي يا اعز الاحباب
ولا تعودي الى ايلامي
... ولتغرفي دموعك كلها في النسيان
ولا تري الا الابتسامات التي ابتاعها لك
والازهار التي تتطلع الى ان تصبح باقة
واريجها .. وكل حصادي الهزيل الذي نبت في حديقتي
لتقطفيه يا حبيبتي
ولكن .. ما تلك الغمغمة وفيما تتململين ؟
يحسن ان تتشبث جفونك بالنوم يا حبيبتي
فأثناء النوم نستطيع ان نفعل ما يحلو لنا .. وان نحقق كل شيء
وكل ما لا نستطيع الا ان نهمس به في يقظتنا (1)

ولكن ما هو الجديد في ان يطوف الشاعر بتلك البقاع الشعرية القديمة التي داست الاف الاقدام فوق سطحها المجهد وذهبت ببريقه؟ .. وما هي العلاقة بين ذلك الاتجاه وبيـــن التقليد الشعري الذي نشأ عنه ؟! ..

كان « مایاكوفسكي » يعتقد ان الكهرباء قد جعلت ضوء الشمس شيئا يفتقر الى العصرية . ولكنه كان يؤكد دائما ان العالم الجديد ، ستزدهر فيه الورود والاحلام لتبهج عيوننا . نحن الاطفال الذين تجاوزنا الحد في النضج . ويتساءل بعد ذلك هل يظل الشاعر يقول دائما ان ماريا تحب بطرس ، ناسيا حب بقية الناس الذين يعيدون بالعمل خلق واقعهم ؟ وهل يظل الشاعر حملا وديعا يغطيه الصوف الابيض ، يثغو بموضوعاته الغنائية المشحونة وجدا دون ان يصبح شعورا ووعيا وارادة تتجه نحو صحوة العالم والناس ؟ .. اي ان المشكلة التي برزت في الشعر السوفياتي منذ زمن طويل هي : هل تستمر الطبيعة والحلم ودفقات القلب طفيليات شعرية .. تلتهم اهتمام الانسان والشاعر بواقعه الاجتماعي ، وتصبح رفضا له ومهربا وهميا وشكل موضوعات خالدة للشاعر تحجب رؤيته عن متابعة الجديد في العالم .. عن الحاضر وهو ينجب المستقبل .. عن اقتحام الانسان للاسوار في الكون والمجتمع .. وعن انتقال الفرد من العزلة المجدبة الى المشاركة ؟ .. فالشعر قد انتقل من اللحظة التي يهمس فيها :

يا امي .. ان طفلك مصاب بمرض رائع مجيد
فقلبه قد اشتعل فيه الحريق
قولي لشقيقاني : ليس امامي مكان اختبىء فيه

الى لحظة اخرى تنطوي على موقف اخر ، فلماذا الاختباء ؟! .. ان حريق قلبه يمكنه من الرؤية ابعد من الاخرين .. ومن الافضاء بالسر الذي يكتشفه ، لا على قيثارة ذات وتر واحد . بل عن طريق انغام تتشابك في تصميم وبناء يستهدف اعادة صياغة الانسان بالعودة التي تتعانق فيها الذات مع الاخر . ولم يكن معنى ذلك ابدا ان تنسف القنبلة الذرية البلبل والوردة والحلم . او ان ترتحل كل الازهار الى مجـال فلاحة البساتين ، والاحلام الى على النفس المرضي ، والدموع الـى معامل التحليل الكيماوي ... ولم يكن معنى ذلك ايضا ان يكف بطرس عن حب ماريا ، ويقع في حب ، او يصعد الى حب ، جرار آلي ممتلىء القوام رشيق الحركة . ولكن كان معناه البحث عن انساق جديد يحل التناقض بين الاشوا ق القديمة والافاق الجديدة . وهو بحث بدأ منذ زمن طويل ، بعد التحقق الفعلي للاشتراكية مباشرة . وما زال يطـرح القضايا الكثيرة . فبعض الشعراء قد صوروا الانسان الجديد باعتباره كائنا اسطوريا هائلا ، لا يأكل الا بيض النعام ولا يقنع بافل من عشاء الافيال ، ولا يستمرىء الا لحم اضخم الحيتان . ولا تتدفق مضخات قلبه بالانفعال الا امام الاهداف العظمى القاصمة للظهر . وروج بعض النقاد للفكرة الخرقاء القائلة بان الشعر الغنائي لا بد له من تصوير ذلك البطل الغنائي ، او بطل غنائي مماثل ، ما دام الشعر يسعى دائما الى نقل تجربة نموذجية متحققة في انفعال فردي . وما دامت الواقعية في الادب تتميز بخلق النماذج . ناسين بذلك ان الكائن الخرافي لا علاقة له بالواقع من ناحية ، وان النموذج الروائي يترك مكانه في الشعر للقرابة والتماثل والاشتراك بين كل الناس في كل انفعال فردي عميق يتسم بالصدق . وما اضأل نصيب التهاويل من العمق والصدق . ونسي الكثير من الشعراء وهم يعبرون عن الجديد ، وهم يسمعون الدنيا « الوقع الحافل بالكهرباء لكلمة الانسان » ان ذلك الوقع يتحول الى ضجيج فارغ ما لم تملأه انفاس الفرد والامه واصراره واخفاقه . ونسوا ايضا ان « ملحمة الانتصار ذات الطابع البطولي » تتحول الى ميلودراما تعسة ما لم تصبح بحيرة تصب فيها الاحزان الصغيرة والافراح الصغيرة .. وينتحل الشاعر فيساريون سيانوف اعذارا لهؤلاء الشعراء

---

(1) قصيدة ترجمت شعرا الى الانجليزية في مارس ١٩٦٥ بقلم افريل بيمان .

في قصيدته (الجيل الذي انتمي اليه) ..

كانت اغانينا مثلنا .. متدفقة غليظة متأهبة دائما
فهي وحدها تستطيع ان تنطق بمشقة زماننا
وهي وحدها التي تستطيع استمالتنا ، والتقاط النار والاندفاع
كنا نعصف بالابواب ... فطرقها علامة على الخور .

ولا يعنينا ان نقف كثيرا عند الاعذار فرد الفعل هو موضوعنا . فكيف تكون الاغنيات بعد ان ذهبت مشقة زماننا ، واصبحنا لا نقتحم الا ابوابا مفتوحة على مصاريعها الزجاجية ؟ ... هل يعود الشاعر بعد ان يجفف عرقه ، ويتناول مهدئا ، ليبحث عن صلات بين الفرد الانساني ومجتمع خاص ابطاله هم الطفل والقبرة وزهرة الاقحوان والفتى الراعي والكلب المخلص والنجوم والقلوب والعذارى الى اخر قائمة السكان كما فعل الرومانسيون القدامى ؟ .. وهل يعود الشراع ليشق بحور الشعر التي لا تعرف وحوشا مفترسة من البشر والالات . وترسم خطة انتاج الشعر خلق عوالم رمزية تعبر عن توازن واتساق مقابل عالم الحياة اليومية الرمادي الذي هجرته الالهة والكائنات الخرافية التي كان اسمها « الانسان الجديد » ؟ .. نحن نجد محاولة وضع الاحلام الرومانسية القديمة فوق الاهداب الصناعية لكائنات افتوشنكو ...

يا اعز الاحباب .. ليغلق النعاس عينيك .. فنحن على الارض :
انت وانا

وكوكبنا يجري مرتاعا متعثرا في السماء
ولا بد ان التصق بك متشبثا حتى لا تطيري في الهواء
وحتى نحلق معا ... ليغلق النعاس عينيك
ولتنفضي عنك الاحزان ... ولتنهل عيناك من الرذاذ السحري
فما اصعب ان نجد الراحة هنا على الارض ؟!

ولا جدال في ان الشعر الواقعي يحفل بعناصر من الرومانسية والحلم . فالواقع ليس اسير اللحظة الحاضرة. بل هو يعد بألف امكان. والحلم محاولة لامتلاك الواقع ، ومتابعة براعمه وهي تتفتح ، انه حلم العين اليقظى ذلك الذي تعرفه الواقعية ، وليس اغماض العين عن الحقيقة وبناء اوهام من دخان المخدر . انه ليس رفضا لعالم تملأه الاحزان ، بل هو نهم متجدد لا يقنع بقبول العالم كما هو ، بل يقترح عالما تقترن فيه الرغبة بالتحقق . فاين مكان افتوشنكو في اخر قصائده من الحلم والرومانسية ؟ .. هل يتبع الرومانسيين القدامى فيدع الوهم طليقا يتجول هاربا من عالم تذوب فيه المتعة بمجرد اللمس ... ويذبل الخد حينما نطيل النظر اليه .. وتتحول الشفاه الناضجة الى شيء قديم ، الى عالم الطفولة المليء بالبكارة الدائمة ، الذي لا تفسده الالفة ؟ ام يقدم صيغة جديدة تستمد من موهبته العظيمة فاعليتها ؟..

لنأخذ قصيدته الاخيرة المسماة .. (الذاكرة الثالثة) ...

ليس في استطاعة احد ان يفلت من حس خفي غامض
يصطبغ بالم ساحق وحزن مرير
حينما ننفض عن وجه الحياة كل رياء فنجدها كلها نوعا من الجنون
وفي اعماقنا نستشعر برودة الموت
فننهض لاهثين محاولين الامساك بذاكرتنا
كما يستند المريض الى يد الاخت الحنون
فالظلمة تحيط بنا من كل جانب
ووحدتنا كابية موحشة
وذاكرتنا المستقرة في القلب
او تلك الذاكرة المستقرة في العقل
لا تستطيعان تقديم اي عزاء
ويهجر نور الحياة اعيننا ، وتتعثر ايماءتنا وكلماتنا
ولكن اجسامنا تحنو على ذاكرة ثالثة
ان اقدامنا تتذكر توهج الرماد صيفا في طريقنا
وكيف كان العشب المبلل بالندى ، يتسلل هاربا بين اصابع اقدامنا
في المروج ومنعطفات الغابة
ووجوهنا المختنقة الساخنة تذكر لسان الكلب ورطوبته
وهي تقفي علينا انه يقاسمنا العناء ، حينما كنا نفتقد العون بعد معركة
ويستدعي جبيننا الى الذهن ، تلك القبلة الخافتة الممتعة
التي تستقبل بها الانسانية يد الام وهي تمنح بركاتها
وهل ننسى رغشة الفرحة الفامرة حينما تسترخي السيقان
ايام الراحة ، على صدر الارض مطمئنة واثقة . وعيوننا ترمق السماء
وتستشعر الاصابع من جديد رفة قطرات المطر
واختلاج الرعب في طائر يتألم . وارتجافات الشعر فوق رقبة الحصان
والشفاه .. تتذكر شفاها اخرى ، وما فيها من جليد ولهيب
ووثوبها الذي لم يذعن لترويض ، فالعالم عند اطرافها
ومذاقها برتقال وثلج
وتلك الذاكرة تستثير شعورا بالعار
ان تجنب تيار الحياة خيانة سافرة
فلنعد بكل اهتماماتنا الى ذكريات القلب والعقل
ومهما نكن ، تقلبات الحياة ، وصدماتها ومشقتها
فجمال الحياة جدير بامتناننا
وليس هناك من ثمن فادح ، يصل الى قيمة ذلك الجمال (٢)

ولنقارن الان تلك القصيدة بتجربة مماثلة عند شاعر انجليزي رومانسي قديم ، هو وليام وردزورث (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠) عبر عنها في قصيدتين .. الاولى معنونة (ابيات نظمت على مبعدة اميال من نترن آبي) يتحدث فيها عن الظلمات والاشكال المتعددة التي يأخذها ضوء النهار، وقد نفض عنه كل بهجته ، حينما لا تعود الحركة القلقة ذات جدوى ، وترين حمى ثقيلة فوق نبضات القلب .. ولكن صوره تتنفس في الذهن

(٢) ترجمت شعرا الى الانجليزية في مارس ١٩٦٥ بقلم بيتر تميست

صدر حديثا :

الحياة الحب

للشاعر ابراهيم محمد نجا

مجموعة من قصائد الغزل الرفيع

منشورات دار الاداب

من جديد ، في ومضات الفكر الذي كاد ان ينطفىء ، وفي الكثير من عمليات التذكر والتعرف الداكنة الخافتة ، وفي حيرة حزينة بعض الشيء . فيقف الشاعر .. لا يغمره احساس المتعة الحاضرة بها فحسب، بل افكار بهيجة تشير الى ان تلك اللحظة تحمل حياة وقوتا للسنوات المقبلة .. حينما جاء اول مرة الى التلال وقفز مثل الظبي على ضفاف الانهار والجداول . وكانت الالوان والاشكال عنده نوعا من الاشتهاء والشعور بالحب . والشاعر ليس في حاجة الى استهواء سحري يأتي من بعيد ، او الى افكار اثيرة او اية دلالة تنبع من الحواس . فما زال عاشقا للمروج والنباتات وكل العالم العاتي ، عالم العين والاذن.عالم الحواس سواء ما خلقته تلك الحواس او ما ادركته . وما اسعده بأن يجد في الطبيعة ولغة الحواس مرساة لانقى الخواطر ، ويدا حنونا تأسو الجراح ، ومرشدا وحارسا .. ويخاطب الشاعر رفيقا كان يصاحبه في الماضي . فيلتقط في صوته ما كان ينوء به القلب القديم من لعنة، ويقرأ مباهجه الماضيات في الانوار المتدفقة من عينين لم تذعنا للترويض، كما يناجي اختا حنونا ، وتصبح الذاكرة ملاذا لكل صوت حلو وكل تآلف ، حينما تحل الوحدة او الخوف او الالم او الحزن .

والقصيدة الثانية حول (ايحاءات الخلود النابعة عن الطفولة الباكرة) يستشعر فيها الشاعر حنينا عارما الى ايام بعيدة .. حينما كانت المروج والادغال والجداول والارض تتشح بضوء سماوي .فروعة الحلم ونضرته لم تعد الان كما كانت في الايام التالية . لان ذلك الجلال قد قضى نحبه .. وما الذي فقدناه ؟ .. لقد حملنا منذ الميلاد شيئا من عالم اخر نفتقده تدريجيا ، ولكن شيئا من الذاكرة الالهية يظل فينا. وهذا الشيء اذا ما احسنا الاحتفاظ به يملأ الحياة الوانا . فما اسرع ما تثقل الروح حمولتها الارضية . وكم ترين العادة فوقنا فادحة كالصقيع وعميقة كالحياة . ولكن الانفعالات الاولى .. هذه الذكريات المصنوعة من الظلال هي منابع النور في نهارنا .. وهي النور الهادي لابصارنا ، وعلى الرغم من ان شيئا لا يستطيع ان يرجع النضرة الهائلة الى الحشائش ، ولا التألق للزهرة .. فلن يملأنا الحزن ، وسنجد العون فيما بقي لنا ..

وان قلبنا الانساني الذي يفدق علينا الحياة
بكل رقته وافراحه ومخاوفه
جعلني اعتقد ان زهرة صغيرة تتفتح
تستطيع ان تستثير خواطر وذكريات
تكمن في اعماق بعيدة ..
لا يمكن ان تصل اليها الدموع

ورغم الاختلافات الضئيلة في هذه التجربة ، فاننا نلاحظ ان « افتوشنكو » ينزل ضيفا على وردزورث ، وانه مجرد صدى له . ينقل عنه التجربة بكاملها . ولا اريد ان اصل من ذلك الى القول بعملية نقل عامدة ، فذلك لا يعنيني .. ما دمت اقرأ افتوشنكو مترجما فلا استطيع الحكم . ولكني اريد ان ابرز ان رومانسيته الجديدة في بعض قصائده ، لا تضيف عنصرا جديدا . انها لا تجعلنا نقبل عالمنا الحاضر في صحوته على المستقبل ، بل ان « الحياة » عنده تتكون من الاشياء « الخالدة » .. الجداول والحشائش والكلب المخلص وشفة المحبوبة . وحلاوتها تكمن في بكارتها الاولى وفي ذكريات الطفولة . فهي « حياة » لم تضف عشرات السنين اليها شيئا جديدا . وهي لم تنقلنا من احلام الغابة المسحورة في الظلام الى احلام المدينة التي لا تعرف النوم . ولم ترتفع بنا من افق فرد واحد الى افق يحنو على الجميع ، ورغم النبرة العالية التي ترحب بالحياة في اخر قصيدته ، فابياتها كلها تقدم الذكريات الممتعة كاعتذار عن ظلمات « الحياة الجديدة » انه يقبل عالما لا يعاصر مشكلات اليوم . وبطبيعة الحال ليس هذا حكما ينطبق على كل اعماله .. بل على اتجاهه الجديد الذي يلتقي فيه مع كل مثالب الرومانسية القديمة .

القاهرة — ابراهيم فتحي

دار الاداب تقدم

الرواية العالمية الرائعة

زوربا

تأليف الكاتب اليوناني الكبير

نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة جورج طرابيشي

رواية مدهشة تنبض بالحياة وتمزج الاحداث المشوقة بفلسفة عميقة تثير التأمل والمتعة . وقد اتيح للمواطنين العرب حديثا ان يروا هذه الرواية على الشاشة البيضاء تحت عنوان « زوربا اليوناني » .

صدر حديثا